

فن الإخراج المسرحي بالجزائر في ظل الشرعية الثورية
-قراءة وتحليل في مسرحية الخبزة لـ"عبدالقادر علولة"-

The art of theatrical directing in Algeria under revolutionary
legitimacy
Reading and analyzing the play "The Bread" by "Abdel Qader -
"Alloula

براهيمي وسيلة¹، خيرة حمرايعين²

¹ جامعة وهران 01 أحمد بن بلة ، الجزائر ، brahimi.wassila@gmail.com

² جامعة وهران 01 أحمد بن بلة ، الجزائر

تاريخ الاستلام: 2023/09/06 تاريخ القبول: 2024/01/13 تاريخ النشر: 2024/06/29

ملخص: تطرقنا في المقال المرفق أعلاه إلى الحديث عن فن الإخراج المسرحي بالجزائر، في فترة معينة وهي الفترة التي جاءت مباشرة بعد الاستقلال والتغيرات التي شهدتها الجزائر من تأميمات واسترداد مؤسسات وطنية اقتصادية تربوية ثقافية وغيرها. ومدى أثرها على الأفراد في المجتمع. وقد قمنا بتحليل مسرحية "الخبزة" لمؤلفها ومخرجها "عبدالقادر علولة"، الذي استطاع أن يحمل الإخراج المسرحي والمسرح عامة في الجزائر من منطقة إلى منطقة أخرى مختلفة تماما، وقد تميز "علولة" عن غيره من معاصريه إذ قام بدراسة المجتمع الجزائري والتغلغل في أعماقه للنهل من تراثه الذي اعتبره مصدرا جديا هام في العملية الإبداعية. يتجلى توجه "علولة" الإيديولوجي في أعماله وبشكل واضح، فقد مثلت الاشتراكية عند "علولة" تحقيق العدالة الاجتماعية ونشر المساواة بين مختلف شرائح المجتمع. وهذا ما لمسناه في تحليلنا لمسرحية "الخبزة"، حيث ألقى "علولة" الضوء على إنسانية وكرم الشخصية الرئيسية "سي علي" الكاتب العمومي. ومن خلال تصرفاته تجسدت مبادئ الاشتراكية التي تحث على المشاركة والتعاون.

كلمات مفتاحية: الإخراج، المسرح، الاشتراكية، المخرج، الإيديولوجيا، الجماليات، التراث، الاستقلال

Abstract: We've mentioned in the article below about that the art of staging has changed after the Algerian independence. After that date, Algeria has witnessed changes in many fields, political economical cultural field ..., and these changes affected on people. "El khobza" is a play wich was written and directed by "Abdelkader ALLOULA", it was played in 1970. "Alloula" has brought to the Algerian theatre a lot of changes based on the cultural heritage and the folklore in Algeria. Like every other Algerian at that era, "Alloula" followed the socialist current, he believed that socialism achieved social justice and equality in the society.

Keywords: Staging, theatre, director, independence, heritage, aesthetics, idiology, socialism

1. مقدمة:

يقدم المسرح في أبسط تعريف له بأنه "ظاهرة فنية تقوم على لقاء مقصود واع بين ممثل ومتفرج، في زمان ومكان محددين، حول نص يجسده الأول للثاني (بالتعبير اللغوي، أو بالتعبير الجسدي، أو بهما معاً)، بهدف تحقيق متعة جمالية فكرية".¹ لذلك يوصف بأب الفنون لاستيعابه عناصر فنية عديدة مجتمعة. وهذا ما يقودنا إلى القول بأن النص هو اللبنة الأولى التي يبنى عليها كل ما يدور في المسرحية وعنصر من عناصر الإخراج المسرحي. تظهر عبقرية "علولة" في انتقاله السلس بين الممثل، المخرج والمؤلف، فبعدما شذ أسلحته المسرحية في "فرقة الشباب" باعتباره ممثلاً ومخرجاً في "المجموعة المسرحية الوهرانية"، انتقل إلى حجز مكانه في المسرح الوطني ليحصل على العديد من الأدوار هناك إلى أن انتقل إلى إخراج مسرحيات كتبها غيره، إلا أن ما ميز "علولة" عن غيره هو إخراجة لمسرحيات ألفها هو بنفسه وقد ألف هذه المسرحيات باعتباره مناضلاً ومدافعاً عن تصور ورؤية محددين، ف"علولة من المخرجين المسرحيين الذين يوظفون كل ثقافتهم التقنية الواسعة لخدمة ما يكتبونه ويقتبسونه من نصوص، إنه المخرج المسرحي المتفرغ لإخراج ما ينتجه

¹ نبيل الحفار، المسرح العربي (الموسوعة العربية)، المجلد الثامن عشر، صفحة 550.

قلمه، في حقل التأليف المسرحي²، فهو يكتب بعقلية المخرج حيث تسبق التقنية الكتابة وتتقدم الحركة الحوار، لذلك نلاحظ في أعماله أنها سرعان ما تستعيد بريقها فوق الركح عندما يضعف الإيقاع أو يبهت الحدث، وقد اعتبر "مراد سنوسي"^{*} أن "علولة" قد بحث في المسرحية عن التوازن بين مسرحة الفعل وقول الفعل.³

شكلت مسرحية "الخبزة" حدثا هاما حين عرضت لأول مرة في جوان سنة 1970، وكان ذلك خلال الأسبوع الثقافي الوطني، حيث عاشت مدينة الباهية وهران أجواء ثقافية مميزة، وكان الرئيس "هوارى بومدين" قد دعا "الملك فيصل" لضيافة الجزائر حيث دشنا مع بعض المقر الجديد للإذاعة والتلفزة الجزائرية وفيه أصبح البث التلفزيوني وطنيا.

● ملخص مسرحية "الخبزة":

تدور أحداث المسرحية حول شخصية "سي علي" الكاتب العمومي الذي يكسب قوت يومه من العمل اليومي مع زبائنه الذين هم أكثر فقرا وعوزا منه. وتعكس هذه الشخصية مدى طيبة وكرم الجزائري حتى ولو كان ذلك على حساب قوته اليومي، وقد كانت وجبته اليومية

² رقيق علاء الدين، مقاربة نقدية لمسرح علولة -مسرحية الخبزة نموذجاً-، مجلة الحلقة "عودة إلى المسرح"، العدد 04، نوفمبر 1993، صفحة 32

^{*} مراد سنوسي، كاتب مسرحي وصحفي جزائري، من أهم الأعلام الإعلامية التي اهتمت بالشأن الوهراني خاصة في المجال الثقافي، تقلد منصب مدير إذاعة الباهية وهران سنة 1999، ثم مديرا على المحطة التلفزيونية الجهوية وهران، مثل الجزائر في العديد من التظاهرات الدولية والوطنية بمشاركته بمونودرام "متزوج في عطلة"، عين على رأس المسرح الجهوي بوهران سنة 2018

³ جعفر بن صالح وحמיד عبدالقادر، "عبدالقادر علولة....القائمة التي يتمت المسرح، 10 مارس 2015،

حبات الزيتون التي كان لا يستطيع اقتنائها في بعض الأيام. وذات يوم، تراءت له صور وخيالات على الحائط لأناس مترفين يأكلون ويشربون ويتحدثون في موضوع طالما أرقه التفكير فيه وهو موضوع الجوع، إلى أن يعلن أحدهم الكتابة في هذا الموضوع، وفجأة تختفي تلك الصورة. هنا تتبلور عنده فكرة تأليف الكتاب. فيقرر أن يبيع مجوهرات زوجته بدون أن تعلم، وانطلق "سي علي" في التجوال بين الناس لتجميع المادة التي يحتاجها لتأليف الكتاب حاملا دفترا صغيرا وقلمًا. وعند انتهائه من رصده الحي لشتى مظاهر الفقر والظلم المنتشرين بين أهله وجيرانه، يتقدم بكتابه لمسابقة التأليف وينال فيها الجائزة الأولى. وتنتهي المسرحية مثلما بدأت، برجع "سي علي" لأهله في الحي ليقراء على الأميين من أهله كتابه.

• الإيديولوجية في مسرحية

"الخبزة":

لخص "علولة" مسرحية "الخبزة" في رده على "الواسيني الأعرج" * في أول لقاء صحفي له، عندما سأله عن المسرحية فقال: "الخبزة بنت الكلب، هي الفقر والميزيرية وقسوة المجتمع، لكنها أيضا حلم نهاية المظالم. المسرح يمنح هذه الفسحة وإلا سنسقط في الظلام الكلي... على المسرح أن يساهم في تنوير الناس، وأن ما يحدث من حولنا ليس قدرا أبديا،

* لواسيني الأعرج، صحفي وكاتب جزائري

وأن تغييره ممكن. على العكس من ادعاءات البورجوازية العائشة كالقمل والصيبان بدم الريسان.⁴ يظهر توجه "علولة" السياسي في إنسانية وكرم الشخصية الرئيسية "سي علي" في مسرحية "الخبزة"، فالاشتراكية تركز كل القيم الإنسانية من مشاركة وتقاسم، ولم تمثل الاشتراكية عند "علولة" توجهها، وإنما كانت بمثابة نمط وفلسفة حياة تبناه واقتنع به، كما نلمس من خلال هذا الرد مدى التزامه بالنضال في سبيل تحقيق العدالة الاجتماعية ونشر ثقافة المساواة بين مختلف شرائح المجتمع.

طرح "علولة" في المسرحية فكرة وجود الطبقة البرجوازية، التي كانت تعيش في بذخ صارخ في المقابل شريحة كبيرة من الشعب كانت تعاني من الجوع والحرمان، ويكمل "علولة" في نفس السياق قائلاً: "السياسة موجودة في كل مكان. حتى في الماء الذي نشربه أو المرأة التي نحب. ثم لم لا نسرق منهم خطاباتهم الجافة والفارغة ونحولها إلى مادة مسرحية؟ لقد سمم السياسيون العقول، دعنا نعيد لها قليلاً من إنسانيتها. صحيح أحياناً يبقى الخطاب على السطح وفي أحيان أخرى يتصاعد عالياً حتى يصبح جزءاً من اللعبة الفنية. الخبزة موجهة اللي يشتاقلوا للخبزة ويدافعون عنها باستماتة. ليست مسرحية ثقافية تأملية ولكنها مسرح القاع الذي لا نراه أو لا نريد رؤيته. نريد أن نشترك في هذه التحولات لبناء مسرح

⁴الواسيني الأعرج، خبزة علولة في الجمهورية، جريدة الجمهورية، 2018.11.26

وطني حقيقي"⁵، لقد رفض "علولة" الاشتراكية القائمة على اغتنام الفرص واستعمالها للسرقة والنهب بالرغم من تشبعه بإيديولوجية الحق في المساواة والعدالة، فقد حافظ على هامشه المسرحي الحقيقي.⁶

• الجماليات في مسرحية "الخبرة":

تميز "علولة" عن غيره ببعد النظر في رؤيته الفنية إذ "ترك بصمات جلية في الفن الرابع الوطني، حيث أعطى الراحل بعدا جديدا للمسرح الجزائري من خلال طريقة عمله التي تركز على الجانب الجماعي وإدماج الجمهور كعنصر أساسي في العرض، حرصا منه على احترام القلب الفني والمسرحي بمعايير عالمية وباعتماد مقاربة علمية⁷. فضلا عن تثمين وإعادة الاعتبار للأشكال الفنية المستوحاة من التراث (الحلقة، القوال وغيرهما) والبحث المعمق حول التعبير المسرحي"⁸، وبما أن التراث يشكل دائما وأبدا همزة وصل بين السلف والخلف لجأ إليه "علولة". مثله مثل رواد المسرح في الجزائر، في سبيل ضم أكبر عدد ممكن من الجمهور الذي أصبح ينفر من الأشكال المسرحية الغربية، الوافدة التي تتنافى مع الذوق العام، وطريقة التفكير الجزائرية وحتى النفسية الجزائرية وذلك لتشكيل قاعدة جماهيرية متابعة

⁵الواسيني الأعرج، م.س، 2018.11.26

⁶ ينظر الواسيني الأعرج، م.س، 2018.11.26

⁷ جعفر لن صالح وحמיד عبدالقادر، م.س

⁸ن.ج، في الذكرى العشرين لاغتيال علولة. أسد وهران مشروع مسرحي متكامل، يومية المساء، مقال بتاريخ 2014.03.12

للمسرح في الجزائر، وذلك ما يحقق الاحتفالية في العمل المسرحي التي تقدم جانب من الجمالية المسرحية الغربية من ناحية الانفتاح والتواصل مع الآخر، "والحق أن بلوغ الشمولية والإنسانية على مستوى الإبداع لا يتعارض مع الانطلاق من الواقع المحلي، حيث يشكل الخاص، الجزئي عندما يتمكن المبدع من تمثله بصدق وعمق انفتاحا على ما هو إنساني كلي وكوني"⁹

وما يميز مسرح الحلقة عند "علولة" هو إدماج الراوي على أنه الشخصية الشاملة، حيث يحتل القوال أو الراوي مكانة مركزية تتمثل في التمهيد لسرد الأحداث وتقديم الشخصيات حيث "إن المعنى من المنتج الجمالي لا يكمن فقط في الكم الصوري الدلالي لتشكيل العناصر الإخراجية، بل يكمن في نظام القيم والفكر والمنطق الوظيفي وهو هنا يشكل آصرة مهمة للتلاقح بينها وبين النظرية الفلسفية الجمالية من خلال إزاحة القشرة الجمالية للتعبير الفني إلى أفق التضمين لإنتاج الفكر الإخراجي في فهم الشكل بصيغة فلسفية وذات صيغة جمالية خالصة وحين تكتمل صيغ التوازن الوظيفي لهذه العناصر الإخراجية في اتجاه "فاغنر" الإخراجي مع إدخال بعض الألوان الفنية الأخرى في فضاء تتركز معطياته الاشتغالية على العنصر الموسيقي بوصفه نمطا موضوعيا وحسيا والذي يتحكم بالإيقاع العام للعرض"¹⁰

⁹كمال فهمي، الفلسفة والمسرح، مطابع إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، 2014، صفحة 154
¹⁰ حازم عبدالمجيد اسماعيل، المقاربات الجمالية للاتجاهات الإخراجية في تشكيل العرض المسرحي، دار الفنون والآداب للطباعة والنشر والتوزيع، البصرة، العراق، الطبعة الأولى، 2016، صفحة 164

وقد شغل الراوي مساحة عريضة في المسرحية، ففي كل مرة يظهر فيها يبرز بقيثارته وصوته العذب ليقدم شخصية "سي علي" وملامحه الإنسانية، كما "أعطاه المخرج، وركز فيه كل الطاقات الدرامية، التي كان يستوجب أن تفرزها الأحداث نفسها"¹¹، لذلك نجد الراوي يلعب دور الموسيقى التصويرية في جميع مسرحيات "علولة" فدوره يقابل دور الجوقة في المسرح الإغريقي، ولكن أكثر إيجابية وأقل حيادية، كما أنه في منزلة العصب الذي يربط عناصر المسرحية المتفرقة.

تميز الراوي في مسرحية "الخبزة" بصوته الجهوري والقوي، وهو الأمر الذي زاد من جمالية الصورة التي تسللت إلى الأذان بالرغم من عدم تجسيدها مرئياً (فاستعان المخرج بالراوي فيبعض المشاهد)، وهنا يكمن ذكاء "علولة" في توظيف عناصر مسرح الحلقة لمعالجة الأخطاء الواردة في كتابة نص المسرحية.

كما أورد "علولة" الجانب الفكاهي، فلم تكن مسرحياته التي تدرج الفكاهة من أجل الفكاهة ولكن لسبب معين، [إذ من المعروف أن بدايات المسرح في الجزائر انطلقت من مسرحيات اتسمت بالضحك والهزل وذلك لحاجة الناس أيضا للترفيه عن النفس وكسر الجو المشحون بالهموم].

¹¹ رقيق علاء الدين، م.س، صفحة 35

لم تصنف مسرحيات "عبدالقادر علولة" ضمن المسرحيات الهزلية في الواقع، بل كانت مسرحيات تراجمية تحمل في حواراتها جانبا فكاهيا إذ رأى في الضحك وسيلة هامة لتوصيل الخطاب السياسي بطريقة سلسة؛ الذي وظفه بوعي تام متقاديا أي نوع من أنواع الحشو، وقد تجسد الجانب الفكاهي في المسرحية عبر توظيفه لمواقف جسدتها الشخصيات التي كانت تنبض بنوع من العبثية الممزوجة بالطرفة والبطولة والرجولة في آن واحد، كما استطاع "علولة" اللعب بالكلمات وإدراجها بين الحين والآخر في المشاهد، لذلك لجأ للموروث الشعبي. إن طبيعة المسرحية دائرية حيث كما بدء الراوي المسرحية قام باختتامها، فبالرغم من محاولة "السي علي" الابتعاد عن واقعه الذي أثقل كاهله وبالرغم من اكتسابه شهرة عبر نشره الكتاب وبالرغم من خروجه من دائرة الفقر والفقراء، إلا أنه رجع إلى أهله وحيه¹²:

"كان "السي علي" في الحرفة كاتب هام،

في السن قريب يلحق للمستين عام،

حنين كريم شعبي معروف،

قلبه واسع يحسن العون والظروف،

خبزته المخلوق منيظها من الحروف،

¹² عائشة بوزيد، القوة الإنجازية للأفعال الكلامية في مسرحية "الخبزة" لعبدالقادر علولة، مجلة التعليمية، المجلد 05 العدد 14 ماي 2018، ردمك 1717-2170، ص 423

كان "السي علي" في الحرفة كاتب هام،

المحل ضيق والقلم والمكتب قدام،

أفعاله الطيبة تشهد عليه يوم القيامة،

كان "السي علي" في الحرفة كاتبها"¹³

وقد لجأ المخرج إلى توظيف الدارجة الجزائرية بطريقة ذكية جدا، فاللغة هي شكل من أشكال التعبير التي تنتج النص وتحققه¹⁴، فقد مزج بين العربية الفصحى والدارجة فأنتج ما يعرف باللغة الثالثة، (يمكن أن ندرجها في خانة اللغة العامية كونها أوصلت معنى المسرحيات لأكبر شريحة في المجتمع الجزائري) "فلو كانت الفصحى هي لغة المشاهد لكتب بها، ولكن طغت العامية على الساحة فكان المسرح على لسان حال المجتمع. وقد أدرك أن الفن المسرحي يعتمد على اللغة بالأساس، وخاصة اللغة المبسطة القريبة من المجتمع"¹⁵، وقد استعان بالتراث والموروث الثقافي عبر توظيف الأمثال الشعبية، فتمكن من إيصال المعنى واحترام مكونات العمل المسرحي محافظا على روح النص وحضورها بشكل فني وجذاب. وعندما نذكر الموروث الثقافي واللغة عند "علولة" فالحديث يطول إذ وظف العديد من الأمثلة الشعبية والعبارات التي كانت وما زالت إلى يومنا تستعمل لتعبر عن موقف ما.

¹³ عبدالقادر علولة، مسرحية الخنزة، تأليف وإخراج عبدالقادر علولة، المسرح الجهوي وهران 1970، ص4

¹⁴ ينظر، طامر أنوال، ضمنية الخطاب في المسرح، مجلة إنسانيات، 2009، عدد 43، ص34

¹⁵ عبدالكريم حمو، إشكالية اللغة في أعمال عبدالقادر علولة بين الفصحى والعامية، مؤلفات مركز البحوث الأنثروبولوجية والعلمية والثقافية، 2018، ص9ك

وقد تكررت في مسرحية "الخبزة" مثل هذه العبارات والأمثلة في العديد من المشاهد فهي التي تعطي دفعا للعمل، ففي مشهد السائلة التي تطلب المساعدة من "السي علي" وزوجته ليقنصا معها رغيف خبز، لم يكن طلبها بمجرد كلمات وإنما كان طلبها بعبارة متداولة وهي: "لله يا المومنين عاونونا بخبزة ربي يعاونكم"¹⁶، إلا أن "السي علي" ليعبر عن رفضه لتقديم المساعدة يعيد نفس العبارة التي رددتها السائلة ردا منه على زوجته "عائشة" التي حاولت إقناعه باقتسام الخبزة لكن بدون جدوى، وفي نفس المشهد ترد زوجته عليه بمثل شعبي قائله "دير الخير تلقاه"¹⁷ ما يعبر عن إيمانها الراسخ بأن الخير يقابله دائما الخير.

يندرج السياق العام لمسرحية "الخبزة" في سرد إلى ما آلت إليه حالة الجزائري ووصف حاجته، فقره وعوزه بعد استقلال الجزائر. لذلك وظف "علولة" تلك الأغاني (دور الراوي في المسرحية) والأمثال الشعبية التي تعكس معاناة الشعب الجزائري. وقد حاول "علولة" من خلال المسرحية إرساء مفهوم محو الأمية من خلال تعليم "السي علي" لزوجته وبناء جيل من الشباب المتعلم في مشهد تعليم "السي علي" للطفل.

¹⁶عبدالقادر علولة، م.س، ص32

¹⁷عبدالقادر علولة، م.س، ص32

لقد استوعب "عبدالقادر علولة" ضرورة المزج بين العامية والفصحى وتبسيط هذه اللغة حتى يستوعبها المتعلم وغير المتعلم وليصل الفن المسرحي لأكبر شريحة من الشعب، وقد ذكر في مذكراته: "لقد فهمنا بأنه لتطوير المسرح في الجزائر لا بد أن نخاطب الجمهور بلغته"¹⁸

¹⁸ عبدالقادر علولة، مذكرات علولة، شروق المسرح الجزائري، 2000، تر منور أحمد، منشورات التبيين الجاحظية، الجزائر،